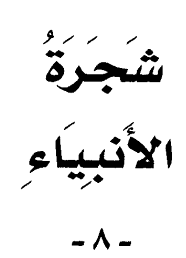




الفداء العظيم

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥	منصور الرفاعى عبيد.
م ن إس	إسماعيل عليه السلام؛ الفداء العظيم / منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبه؛ رسم صفوت قاسم . ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.
	٢٤ص؛ إيض؛ ٢٤سم. ـ ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛ ٨)
	تدمك: ٤- ١١٣٢ - ١٠ - ٩٧٧.
	١ - قصص الأنبياء. أ- إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبه، مؤلف مشارك. ج- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٩٨ / ٨١٨٧
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1132 - 4

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا هُوَ أَبُو العَرب، إسمَاعيلُ بنُ إبراهيمَ عَليْهمَا السَّلاَمُ.

الَّذى قَدَّمَ للبَشريَّة دُروسًا فى البُطولَة والتَّضْحية والفداء، بُطولةَ خَالصَةَ لوجه الله تَعالَى، وتَضْحيةَ غَالية فى سبيل الله منْ أجْل دَعوة الحقِّ والإيمان، وفداء فى سَبيل الله، وإطاعَة أوامره، واجْتنَاب نَواهيه.

وإسماعيلُ عليه السَّلامُ، هُوَ أبُو العَرب، وهُوَ الجدُّ الأعْلَى للنَّبيِّ محمَّد ﷺ، كَمَا أنهُ نُقْطَةُ الوَصْل بينَ المصْريِّينَ والعَرب والمسْلمين، فَأُمُّهُ - كمَا عَرفْنَا منْ قَبْلُ - هىَ هَاجرُ المصريَّةُ، التى تزوَّجَهَا خليلُ الرحْمن إبراهيمُ عليه السَّلامُ، بَعدَ أنْ وهبتْهَا لهُ زوجتُهُ سَارةُ.

وحياةُ إسْماعيلَ كُلُّهَا دُروسٌ وعظَاتٌ؛ لأنَّهُ نَشرَ دَعوةَ التَّوحيد بَينَ سُكّان شبه الجَزيرَة العَربيَّة، ولأنَّهُ نَبىٌّ ورسولٌ مَنحَهُ اللهُ آيات جَليلَة، وعبرًا عظيمَةً.

فَلْنقْض وَقتًا طيبًا - إنْ شَاءَ اللهُ - مَعَ إسْمَاعيلَ بن إبْراهيمَ، عَليهمَا السَّلامُ؛ لنَرى كَيفَ كَانتْ عَاقبَةُ الصَّبْر عَلَى طاعَة الله، والجهَاد فى سبيله، والطَّاعة لكُلِّ أوامره.

مَولدُ إسماعيلَ عليه السلامُ

كَانت السَّيِّدةُ سَارةُ، زَوجةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، قَد يَئستْ منَ الإنجاب حَتَّى بَلغتْ سنَّ السَّبعينَ، واعتقَدتْ أنَّها بَعدَ هذه السِّنِّ الكَبيرَة لَنْ تُنجبَ، ونظَرتْ إلىَ جَاريتها الشَّابَّة، هَاجرَ المصريَّة، الَّتى أهداهَا لَهَا مَلكُ مصرَ، فَرأتْ فى وَجْههَا نُورًا يَدُلُّ عَلَى حُسن أخلاَقهَا، ومكَارم الفعَال فى خصالهَا، فوهَبَتْهَا لزوْجهَا إبراهيمَ، لعلَّهَا تُنجبُ وَلَدًا يكونُ قُرَّةَ عَين لَهم جميعًا.

وَتزوَّجَ إبراهيمُ مِنْ هَاجَرَ، الَّتي سَرعَانَ مَا حَملَتْ، وَوضعَتْ وَلَدًا جَميلَ الخلقَة سَوِيَّ الجَسَد، يَسْعَدُ برؤيَته مَنْ يَراهُ، وأسْمَتْهُ إسمَاعيلَ.

وَكانَ إسمَاعيلُ هُوَ الابنُ الأولُ لإبرَاهيمَ عَليهمَا السَّلام، إذْ وُلدَ قَبلَ أخيهِ لأبيه، إسحَاقَ عليهمُ السَّلامُ، بأربعَة عَشرَ عَامًا، كَمَا يقُولُ المُؤرِّخونَ.

الهجرة إلى أرض فاران (مكة المكرمة)

ولَمَّا ولدتْ هَاجَرُ إسْماعيلَ، دَبَّت الغَيرَةُ الطَّبيعيَّةُ الَّتي تكُونُ بَينَ النِّساء، في صَدْرِ سَارةَ، وَالغيرَةُ أمرٌ طَبيعيٌّ بينَ النِّساء، لاَ يَدُلُّ عَلَى شَرٍّ في قَلْب سَارةَ، فهيَ زَوجَةُ نَبيٍّ، وبيُوتُ الأنبيَاء مَعصُومَةٌ - بأمرِ الله - مِنْ كُلِّ مَا يُسيءُ إلَى أخلاقَها، أَو ينَالُ مِنْ سُمعتهَا.

ولَمَّا أحسَّتْ سَارةُ بمشَاعرِ الغَيْرة تَدبُّ فِي صَدْرِهَا، قَالتْ لزَوْجِهَا إبراهيمَ:

خُذْ هذه الجَاريةَ وطفلَهَا إلَى مكانٍ بَعيدٍ حَتَّى لاَ أراهُمَا.

وَأخذَ إبرَاهيمُ هَاجرَ وطفلَهَا الرَّضيعَ إسمَاعيلَ، وسَارَ بهمَا في الصَّحراء، وكَانَ دَليلُهمَا هُوَ جبريلُ عَليه السَّلامُ، إذْ أمَر إبراهيمَ أنْ يحُطَّ الرِّحالَ فِي مَوْضعٍ قَريبٍ مِنْ قواعد الكَعبة المشرَّفة.

وَكانت الكَعبةُ مُقامَةً في الزَّمن القَديم، وَهيَ أولُ بَيت وُضعَ للنَّاس في الأرضِ ليعْبدُوا اللهَ تعَالَى عندَهُ، وَلكنَّ السُّيولَ وطُوفانَ نوحٍ، وَالعوَاملَ الطَّبيعيَةَ الأُخرَى كَانتْ قَد طَمَسَت البِنَاءَ، وَهدمَتْ مَا كَانَ مِنْهُ ظَاهرًا فَوقَ سَطْحِ الأرضِ، وَبقيَت القَواعدُ والأُسُسُ ثَابتةً، ولكنَّهَا غَيرُ ظَاهرة للعيُون.

وعندَمَا وصَلَ إبرَاهيمُ عَليه السَّلامُ، إلَى المكَان الَّذي حَدَّدهُ لَهُ جبريلُ، حَطَّ الرِّحالَ في مَنطَقة أعلَى المسجد، وكَانَتْ مَكَّةُ حينذَاكَ أرضاً قفرًا جَرداءَ لا ماءَ فيهَا ولَا زرعَ ولَا أشجَارَ ولا بشرَ يعمِّرُونَ شَيْئًا مِنْهَا.

وَفى ذَلكَ المكَان القَفْـر تَركَ إبْراهيمُ زوجَهُ هَاجَر، ووَلدَهَا إسْمـاعيلَ، وَتركَ عندَهُمَا جرابًا فيه قَليلٌ منَ التَّمر، وسقَاءً فيه قَليلٌ منَ الماء.

ومَـضَى إبرَاهيمُ عَائدًا إلَى الشَّـامِ، وبعْـدَ أن سَارَ خُطُوات تَبـعَتْـهُ أُمُّ إسماعيلَ وسَألتْهُ قَائلةً:

يَا إبرَاهيمُ، أَينَ تَذْهبُ وتتركُنَا في هَذَا الوَادِي الَّذي لَيسَ فيه زَرعٌ وَلا مَاءٌ وَلا نَاسٌ؟

وَلَمْ يلتفتْ إليْهَا إبرَاهيمُ وسَارَ في طَريقه، فَأعادَتْ عَليه السُّؤالَ مَرَّات وَمرَّات.

ثُمَّ قالتْ لَهُ: آللهُ أمركَ بهَذَا؟

فَقَال لَها إبراهيمُ: نَعَمْ.

فقَالت السَّيدةُ هَاجَرُ في إيمَانٍ وثقَةٍ وثَباتٍ:

إذَنْ، لَنْ يُضَيِّعَنا اللهُ أبدًا.

وَرجعَتْ هَاجَرُ إلَى طفلهَـا الرَّضيع الرَّاقد في الوَادي، وَانطَلَقَ إبراهيمُ حَتَّى اختَـفَى عَنْ عَينيْهَـا بينَ ثنايَا الجبَال، ثمَّ الْتَفَتَ نَحـوَ بَيت الله الحرَام، ورفعَ يَدْيه دَاعيًا ومُناجيًا ربَّه، فقَالَ:

ربِّ، إنِّي تركْتُ أهْلي، زَوجَـتي وَابْني، في هَذه البقْـعة الجَـرداء عندَ بيتكَ المحرَّم، اللَّهمَّ احْفظْهُمَا فَأنتَ خَيرُ الحَافظينَ وأرْحَمُ الرَّاحمين.

وَانطلَقَ عَائدًا إلَى الشَّام.

وَيحـدِّثُنا الـقُـرآنُ الكَريمُ عَنْ هَذَا الموْقف، إذْ يـقـولُ الله سـبْـحـانُه وتَعالَى: ﴿ **وإذْ قَالَ إبْرَاهيمُ ربِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً وَاجْنُبْني وَبَنيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَام (٣٥) ربِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثيراً مِّنَ النَّاس فَمَن تَبعَني فَإنَّهُ منِّي وَمَنْ عَصَاني فَإنَّكَ غَفُورٌ رَّحيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتي بوَادٍ غَيْر ذي زَرْعٍ عند بَيْتكَ الْمُحَرَّم رَبَّنَا ليُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئدَةً مِّنَ النَّاس تَهْوي إلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)** ﴾ [إبراهيم]:

الأم.. والرضيع، والخلاء

استقرت الأمُ المؤمنةُ الصابرةُ هاجرُ، مع وليدها الرضيع إسماعيل في مكان بجوار الكعبة المشرفة، وعلى بعد خطوات من قواعدها، وراحت ترضع ولدها، وتشرب من الماء وتسقيه منه، وتأكل التمر، حتى إذا نفد ما في السقاء من ماء أحست بالعطش، وعطش الطفل إسماعيل عطشا شديدا، حتى بدأ يبكي من العطش، وأحست هاجر بذلك، وبما يعانيه ابنها من العطش كما تعاني، فتركت الولد راقدا مكانه، وذهبت إلى أقرب جبل، هو جبل الصفا، لعلها ترى أثرا للماء أو للناس من فوق الجبل، ولما لم تجد أثرا للماء أو للناس هبطت وتوجهت نحو جبل آخر قريب هو جبل المروة، فلم تجد أثرا للناس ولا للماء، لكن السيدة هاجر المؤمنة الواثقة بربها لم تيأس، وظلت تهرول بين الصفا والمروة بحثا عن أحد، أو عن ماء حتى أتمت سبعة أشواط، صعدت بعدها إلى جبل المروة، فسمعت صوتا يناديها، فنظرت ناحية طفلها الرضيع، فوجدت ملكا أرسله الله من السماء عند موضع زمزم حاليا، وكان هذا الملك يفحص بعقبه، ويرفرف بجناحيه بحثا عن الماء، حتى نبع الماء واندفع غزيرا من بقعة تحت قدم إسماعيل عليه السلام.

وأسرعت هاجرُ إلى الماء وهي تحوطه بيديها وتقول: زم. زم. أي تجمع، تجمع، أو كفى كفى، وأخذت الماء وشربت، وسقت طفلها وملأت سقاءها.

ومن قولها «زم، زم». أصبح اسم البئر هذه «زمزم».

ثم سمعت صوت الملك، وهو يقول لها:

لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيتا لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وما زالت زمزم، نابعة غزيرة يشرب ماءها كل المسلمين، وهي كما وصفها النبي ﷺ: **«طعام طعم، وشفاء سقم»** ويمكن للإنسان أن يعيش عليه، ولا يشعر أنه في حاجة إلى شيء سواه.



وجاءت قبيلة جرهم

مرّت الأيامُ، وهاجرُ وابنُها إسماعيلُ، يعيشان أمامَ الكعبة الشّريفَة، وعندهما ماءُ زمزمَ الّذى رزقهما اللهُ به، وبعدَ أيام مرّ ناسٌ من قبيلة جرُهُم فى أسفلِ مكّةَ يبحثُونَ عن مكان فيه ماءٌ، وكانَ هذا هُوَ حالُ القبائلِ العربية، يتنقّلُون من مكان إلَى مكانٍ بحثًا عن الماء والكلأ.

وشاهدَ الباحثُونَ عن الماء طائرًا يدُورُ حوْلَ مكان بيت الله الحرام. فقالَ بعضُهمْ لبعْض: إنّ هذَا الطّائرَ يدُورُ حوْلَ مكان فيه ماءٌ، ويحُطُّ عليه ليشْربَ منْهُ، وما عهدْنا بهذا الوادى ماءً، ولاَ شيئًا منْ حياة.

فأرسَلُوا بعْضهمْ ليروْا ماذَا يدور الطائرُ حولَهُ، وهناكَ وجدُوا هاجرَ وابنهَا الطّفلَ، ووجدُوا البئرَ مملوءةً بالماء العذْب، فعادُوا وأخبرُوا بقيّةَ الرجال بذلكَ، وأسرعَ الجميعُ بالاتّجاه نحو زمزم، حيثُ تعيشُ هاجرُ وإسْماعيلُ، وكانَ فرحُهُمْ شديدًا، بوُجود الماء فى هذَا المكان.

وتوجّهَ زعيمُ القبيلة بالكلام إلَى هاجرَ، قالَ لها:

هلْ تأذنينَ لَنَا أنْ ننزلَ عندكِ ونُقيمَ معكِ؟

قالتْ هاجرُ: نعمْ، ولكنْ لاَ حقّ لكمْ فى امتلاكِ الماء؛ لأنّ الماءَ ماءُ الله، وهُوَ للنّاس أجمعين.

فوافقَ الجرْهُميُّونَ على ذَلكَ، وضربُوا خيامَهُمْ حولَ الكعبة، بجوار هاجرَ وولدها، وعاشُوا جميعًا يرْعُونَ حقّ الجوار، وحقّ الماء، وكانُوا بذلكَ سُعداءَ أعظَمَ سعادة.

وشبّ إسماعيلُ وترعرعَ فى وسط قبيلَة جرُهم، وتعلّمَ منهُمُ اللُّغةَ العربيّةَ، وبدأ مرحلَةَ الشّباب، وتعلّمَ الصّيدَ، والرّمْى بالسّهام، والمبارزةَ بالسّيف، وكُلّ فُنون القتال.

ونما إسماعيلُ وأصبحَ شابًّا قويًّا، استطاعَ أنْ يُروّضَ الحصانَ، وكانَ الحصانُ حيوانًا بريًّا لاَ يقتنيه أحدٌ، ولاَ يعرفُ ركوبَهُ، فروّضَهُ إسماعيلُ وركبَهُ، فكانَ أوّلَ منْ يركبُ الخيلَ علَى وجه الأرض.



وكانَ أبوهُ إبراهيمُ يأتيه بينَ حينٍ وآخرَ ليزُورَهُ ويطمئنَ على أحواله.

تضحية وفداء

كَبُرَ إسْماعيلُ. وأصبح شاباً جميلاً وسيماً قويَّ الجسدِ، متينَ البُنيانِ، وكانَ أبوهُ الخليلُ إبراهيمُ عليهِ السّلامُ، دائمَ الزّيارةِ لهُ للاطْمئنانِ على أحوالِه، وأحوالِ أمِّهِ السّيدةِ هاجرَ، وذاتَ مرةٍ زارَ إبراهيمُ ولدَهُ، وبينما هُوَ عندَهُ، نامَ ذاتَ ليلةٍ فرأى فى منامِه رُؤْيا، ورؤْيا الأنبياءِ حقٌّ ووحْيٌ من اللهِ تعالى، فرأى فى منامهِ أمراً بأنْ يذبحَ ولدَهُ إسْماعيلَ قُرباناً للهِ عزَّ وجلَّ. ورغم أنَّ الرؤْيا وحيٌ مِنَ اللهِ، ولكنَّ إبراهيمَ تروّى فى الأمْرِ، لأنَّهُ ليسَ أمراً عادياً ولاَ هيِّناً، إنهُ أمرٌ بذبحِ ولدِه، وكانَ ذلكَ فى اليومِ الثّامنِ منْ شهرِ ذى الحجّةِ، فسُمِّيَ ذلكَ اليومُ يومَ التَّرويةِ، وفى اللّيْلةِ الثانيةِ رأى الرُّؤيا نفسَها، فعرفَ وأيقنَ أنها رُؤيا حقٍّ، فسُمِّيَ ذلكَ اليومُ يومَ عرفةَ، وفى اليوْمِ العاشرِ منْ ذى الحجّةِ قررَ إبراهيمُ عليْهِ السّلامُ تنفيذَ الرؤْيا امْتثالاً لأمرِ اللهِ تعالى؛ فصدَعَ إبراهيمُ بالأمْرِ، وذَهبَ إلَى ولدِه إسْماعيلَ، وقالَ لهُ:

ياولَدى، إنِّى رأيتُ فى المنامِ أنِّى أذبحُكَ، وأنتَ تعْلَمُ أنَّ رؤْيا الأنبياءِ حقٌّ وأمرُ اللهِ يجبُ تنفيذُهُ، فماذَا ترَى؟

وهُنا تتجلَّى ذروةُ الإيمانِ، وقمّةُ الصّبرِ، فالولدُ الصّابرُ المؤمنُ يستكينُ لأمرِ اللهِ، ويخْضعُ لمشيئةِ ربِّه.. قالَ إسماعيلُ:

يا أبتِ، افْعلْ ما تؤْمرُ، لَنْ أُخالفَ لَكَ رأيًا، ولَنْ أعصىَ لَكَ أمرًا.

وكانَتْ إجابةُ إسماعيلَ تعنى الامتثالَ لأمرِ اللهِ، والرِّضا بقضائِه، لأنَّهُ يعلَمُ أنَّ رؤيا الأنبياءِ حقٌّ، وأمْرٌ واجبُ النفاذِ.

أخذَ إبراهيمُ ولَدهُ إسماعيلَ عليهِما السّلامُ، وذهبَ به إلى منطقةٍ بعيدةٍ فى أطرافِ مكّةَ، وهى منطقةُ منَى الآنَ. وجاءَ الشّيطانُ يوسْوسُ فى صدرِ إبراهيمَ، يقولُ لهُ:







أنتَ رجلٌ قدْ طَعنتَ فى السِّنِّ، وقَد اقتربَ أجلُكَ، ولَيسَ لَكَ إلاَّ هَذا الوَلدُ، الَّذى يتطَلَّعُ إلَى الحيَاةِ وبهْجتِها، ولَعلَّ الشيطانَ هوَ الذى قَدْ وَسوسَ لَكَ فِى المَنامِ يارجُلُ.. فهَلْ تَذبحُهُ منْ أجلِ وَسوسةٍ لا تَدرى إنْ كانتْ أمرًا منَ اللهِ، أمْ وسوسةً شَيطانيةً تجولُ فِى صَدركَ؟

ويتجلَّى إيمانُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، إذ يقُولُ للشَّيطان:

اغرُبْ عَنْ وَجهِى أيُّها الشَّيطانُ، فمَا أنتَ إلاَّ إبليسُ اللَّعينُ.

وَانحنَى إبراهيمُ، والتقطَ سَبعَ حَصوَاتٍ، ورجَمهُ بهَا.

وَمرَّ الشَّيطَانُ منْ أمامِ إبراهيمَ، ولكنَّهُ لَمْ ييأسْ فقَالَ فِى نَفسه: أذهبُ إلَى إسماعيلَ، فهُو شَابٌ مُراهقٌ، يَستقبلُ الحيَاةَ، ويحبُّ أنْ يعيشَ، فلعلِّى أستطيعُ التأثيرَ عليه، فذهبَ إلَى إسمَاعيلَ وقالَ لَهُ:

يَا إسمَاعيلُ أنْتَ شَابٌّ يافعٌ، والحيَاةُ أمامَكَ جَميلَةٌ، فيهَا البَهْجَةُ والمتعَةُ والنَّعيمُ، فكَيفَ تسمَحُ لأبيكَ وهوَ شيْخٌ كَبيرٌ لَم تعُدْ الحيَاةُ تهمُّهُ فِى شَىءٍ - أن يَذبحكَ؟ اهرَبْ يا إسمَاعيلُ.. وتمَّتعْ بحيَاتكَ قَبلَ أنْ تأتِى نهايتُهَا علَى يَدِ أبيكَ.

ولَكنَّ إسمَاعيلَ الصَّابرَ المؤْمنَ يقُولُ للشَّيطَان:

إنَّ الواجبَ عَلَى الابْنِ أنْ يُطيعَ أبَاهُ، وَأبى نَبىٌّ ورَسُولٌ، وَأمْرهُ منَ اللهِ، فَكيفَ أُخَالفُ أبى، وأعصِى أمرَ اللهِ.. لاَ، لاَ، لَنْ أعصِىَ أبى، وَلوْ كَلَّفنِى الأمرُ أنْ أَفقدَ الحيَاةَ.

وَأخذَ إسْماعيلُ سبْعَ حصَواتٍ، وراحَ يرْجُمُ بهَا إبليسَ، وكرَّرَ ذَلكَ ثَلاثَ مرَّاتٍ.

وَلكنَّ الشَّيطانَ لم ييْأسْ فَأسرعَ إلَى مَكَّةَ ليلْتقِىَ بالسَّيدةِ هَاجَرَ أُمِّ إسماعيلَ، فوجَدَها أمَامَ الكَعبةِ، تتعبَّدُ وتذْكُرُ اللهَ، فقالَ فِى نَفْسه:

إنَّ عاطفَةَ الأُمِّ جَيَّاشَةٌ بالحبِّ لوَلَدها، وخاصَّةً إذَا كَانَ ولَدًا وحيدًا وَهذَا هُوَ المدْخَلُ الَّذى سيُوصِّلُنى إلى قَلْبِ هَاجَر. فتقدَّمَ منْهَا مُستغلاًّ لهفَتهَا علَى وَلدهَا، وقالَ لَهَا:

يَا هاجرُ، أدركى وَلدَك، فَقدْ أخذَهُ أبوهُ إبرَاهيمُ ليذبَحهُ، وهَاهُمَا هُناكَ فى موضع قريب منك، فأسرعى لتنقذيه.

قالتْ هاجرُ: ولماذاَ يذبحُ إبرَاهيمُ ولدهُ الوَحيدَ؟

قَالَ الشَّيطانُ:

إن إبرَاهيمَ يزْعُمُ أَنَّ ذلكَ أمرٌ منَ الله، ويُصرُّ علَى تَنفيذ أمر الله.

قَالتْ هَاجَرُ، بلسَان صَادق، وقلب مُفعَم بالإيمَان:

أوَ قَالَ إبَراهيمُ ذلكَ؟ ومَا رأْىُ إسمَاعيلَ؟

قَالَ الشَّيطَانُ، وَقدْ ظَنَّ أَنَّ حَوارَهُ معَ هَاجَرَ، سَيُفْلحُ فى إثارتهَا لتحَاولَ إنقَاذَ ولدهَا.

إنَّ إسمَاعيلَ فَتىَ صَغيرٌ، لاَيدركُ عواَقبَ الأُمور، وَقد استْجَابَ لرأى أبيه، وأذعنَ لأمْره، وإنْ لمْ تُسرعى لتنقذى وَلدَك الآنَ، فَسَوْفَ يكونُ بعْدَ قليل منَ الهالكين.

قالتْ هاجَرُ بثقة واطمئنان:

إذنْ، أنتَ الشَّيطانُ اللَّعينُ.

وانكَفأتْ، وجمعَت الحصَا، ورمَتْ به الشَّيطَانَ.

ولَما كَانتْ هَذه هىَ أولُ أسْرة فى الجزيرَة العربيَّة، تَحملُ لواءَ الدَّعوة للإسلام، وتَوحيدَ الله عزَّ وجلَّ، وتَرفعُ رايَات الأمر بعَبادة الله وَحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، جعَلَ اللهُ أَعْمَالَهَا شعَائرَ منْ مَنَاسك الحجِّ، لنجدِّدَ ذكْرَى الأُسرة الصَّابرة المؤْمنة فى قُلوبنَا، ونَرتبطَ بزعيمهَا الَّذى هُوَ الأَبُ الرُّوحىُّ لَنَا جميعا، «اتَّبعُوَ ملَّةَ أبيكُمْ إبرَاهيمَ».

ووَصلَ إسمَاعيلُ معَ والده إلَى مَنطقَة خَاليَة فى منَى، فقَالَ إسْماعيلُ:

يَا أبى لاَ تتَردَّدْ، افعَلْ مَا تؤمَرُ، لاَ تَنظُرْ إلَى وَجْهى فتَأخُذَكَ بى شفقةٌ، وَشدَّ وثَاقى حتَّى لاَ أفرَّ منَ الموقف.. وَستجدُنى إنْ شَاءَ اللهُ منَ الصَّابرين.

قام الخليلُ إبراهيمُ عليه السّلامُ، بشَـدِّ وثاقِ إسماعيل، فربطَ يديْه من خلف ظهره بالحبَال، فقال له إسماعيلُ:

يا أبت، كُبّني على وجهي، حتّى لا تشفق عليَّ، وأحدّ السّكين وسنّها جيدا، لتكونَ قاطعةً فلا يكثرْ ألمى، وقمْ بتنفيذِ أمرِ الله ولا تُبطئْ.

وأكبَّ إبراهيمُ ولدَهُ إسـماعيل عـلى وجهه، وهمَّ بذبـحه، ولكنَّ الله أرسلَ ملَكًا، معهُ كبشٌ كبيرٌ سَمينٌ، وهُوَ ينادى:

يا إبراهيمُ، قدَ صـدَّقتَ الرؤيَا، وها هُوَ ذَا كبشٌ كبيـرٌ سَمينٌ، أرسلَهُ اللهُ لكَ فداءً عنْ إسماعيل.

وهكذَا تجلّتْ قُدرةُ الله، فى فداء إسْمـاعيلَ عليْه السَّلامُ بذبْحٍ عَظيم، وجعلـهَا اللهُ عزَّ وجلَّ شَـعيـرة منْ شَعَـائر الأمّة الإسْـلاميّة، وهى تَـقديمُ الأضْحية فى يوم عيد الأضْحَى، تذكيرًا للنّاس بعزيمة الابن وصبره، ورضَا الأمّ بأمر ربِّهـا، وتنفيذ الوالد ما أمـرَ به دُونَ إبطَاء، فكانَ هذا أوّلَ فداء فى التاريخ، وفى ذلكَ يقُـولُ الحَقُّ عزَّ وجلَّ: ﴿وقال إنى ذاهبٌ إلىٰ ربى سيهدين ﴿٩٩﴾ رب هب لى من الصالحين ﴿١٠٠﴾ فبشرناه بغلام حليم ﴿١٠١﴾ فلما بلغ معه السعى قال يا بُنىَّ إنى أرىٰ فى المنام أنى أذبحُكَ فانظر ماذا ترىٰ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴿١٠٢﴾ فلما أسلما وتله للجبين ﴿١٠٣﴾ وناديناه أن يا إبراهيم ﴿١٠٤﴾ قد صدقت الرءيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴿١٠٥﴾ إن هذا لهو البلاءُ المبين ﴿١٠٦﴾ وفديناه بذبح عظيم ﴿١٠٧﴾ وتركنا عليه فى الآخرين﴾ [الصافات].

ثبت عتبة دارك

ومرّت السّنواتُ، وأصـبحَ إسماعـيلُ رجُلاً، أوحَى اللهُ إليْـه بالنُّبُوّة، وجعله رسولا إلى من مـعه من البشَر، يأمرُ أهـلهُ بالصّلاة والزّكاة، وتزوّجَ واحدةً منْ بناتِ القَـبيلة الّتى تعَـيشُ معهُ، قَـبيلة جرْهُم، وبعـدَ ذلكَ بقليل ماتتْ هاجَـرُ أمّ إسماعيلَ، ودُفنَتْ بجـوار الكعبة، وبعـدَ أن اطْمأنّتْ على ابنهَا، إذْ تزوجَ، واستقرّتْ معهُ امْرأتُه تُشاركه الحياةَ.

ويُحكَى أنَّ إبراهيمَ عليْه السَّلامُ جاءَ لزِيَارَة الكَعبة بَعْدَ زوَاج ابنه إسمَاعيلَ، ورحيل هَاجَرَ إلىَ رحاب ربِّها، وأرادَ إبراهيمُ أنْ يَطْمئنَّ عَلَى ابنه، وعَلَى أحْوالَه كَمَا كَانَ يفعَلُ ذلكَ دَائمًا، فلمْ يَجدْ إسمَاعيلَ فِى بَيتِه، ووَجَدَ زوجَتَهُ، فَسَألَهَا عَنْهُ، فقَالت: لقدْ خرَجَ للصَّيد.

فسَألَها إبرَاهيمُ عَليهِ السَّلامُ، عَنْ مَعيشَتِهِمْ، وأحوَالهِمْ، وشُئون حَياتهمْ، فقالتْ بتأفُّف:

نَحنُ بأسوأ حَالٍ، وَفِى ضَيْقٍ وشدَّة. إنَّ أحْوالَنا أيُّهَا الشَّيخُ فى غَايةِ السُّوء، لاَ يرْضَى بهَا إنسَانٌ.

فعرَفَ إبرَاهيمُ منْ شكوْاهَا لَهُ، وَهوَ رَجُلٌ غريبٌ لاَ تعرفُهُ، أنَّ هذه المرأةَ زوجَةٌ غَيرُ صَالحة لابنه، لأنَّها غَيرُ صَابرَة وَلا رَاضية بحيَاتها، وأدركَ أنَّ حيَاةَ وَلده إسمَاعيلَ، وَهوَ نَبىٌّ ورَجُلٌ صَالحٌ لنْ تَستَقيم مَعَ زوْجَةٍ متذمِّرة.. فقَالَ لَهَا:

إذَا جَاءَ زوجُك فَأقرئيه السَّلامَ، وقُولى لهُ يُغيرُ عَتبةَ بَابه.

ولَمْ تدرك المرْأةُ المعْنَى الَّذى يُريدُهُ إبرَاهيمُ عليْه السَّلامُ، ولَمَّا جَاءَ إسْماعيلُ شَعَرَ بحاسَّة البُنوَّة، وبعَاطفَة الوَليد نَحوَ أبيه، أنَّ إبراهيمَ مَرَّ منْ هُنَا، لأنَّ اللهَ يهَبُ الأنبياءَ حَواسَّ يعْرفُونَ بهَا رائحَةَ المكَان، وقَد شَمَّ إسماعيلُ رَائحةَ أبيه الطَّيبةَ الَّتى بَقىَ أثرُهَا بعدَ ذهَابه. فَسألَ زوجَتَهُ: هَلْ زَارنَا أَحَدٌ؟

قَالت الزَّوجَةُ: نَعمْ.. زَارنَا مَنذُ أيَّام رَجُلٌ عجُوزٌ، لاَ أَعرفُهُ..

قَالَ إسمَاعيلُ: وهَلْ أوصَاك بشَىْء؟

قالَتْ: نعَمْ.. أمَرنى أنْ أقَرأَ عليْكَ السَّلامَ، وأنْ أقولَ لَكَ غَيِّرْ عَتبةَ بَابكَ.

ففهمَ إسَماعيلُ مَعْنَى الرِّسالَة الَّتى تَركهَا أبوُه..وقَالَ لَهَا:

ذاك أبى.. خَليلُ الله إبرَاهيمُ، وقَد أمَرنى أنْ أفُارقَك، لأنَّك لاَ تَصلُحينَ زَوجَةً لِى.. فَالحقِى بأهلك، فأنت طَالقٌ.

وتزوَّجَ إسماعيلُ عليه السَّلامُ بواحدةَ أُخرَى منْ بنَات جُرهُم، بعْدَ أنْ تخيَّر أسرتَهَا، وتأكّد منْ صَلاحِهَا، ومرَّت الأيامُ، وجاءَ الخليلُ إبراهيمُ ليزور ولده إسماعيلَ، ووجدَ زوجتَهُ فى بيتها، فسألها: أينَ زوجُكِ؟ فقالت: لقد خرجَ للصيد، يبتغى لنَا رزقًا.

فقالَ إبراهيمُ: وكيفَ حَالكُمْ؟ ومَاذَا عَنْ مَعيشتكُمْ؟

قَالت الزَّوْجَةُ ببشَاشَة ورضًا وقَناعَة:

نَحنُ فى خَير وسَعة.. والحمدُ للهِ.

قَالَ لهَا إبراهيمُ عليْه السَّلامُ: ومَا شرابُكمْ وطعَامُكمْ؟

قَالتْ: الحمدُ لله، شَرابُنَا الماءُ، وطَعامُنَا اللَّحْمُ.

فَقالَ لَها إبراهيمُ، دَاعيًا لَهم: اللَّهمَّ باركْ لَهمْ فى اللَّحم والماء.

ثُمَّ التفتَ إليهَا وهُو مَسرورٌ سَعيدٌ بزوجَة ابنه الصَّالحَة الطَّيبَة الصَّابرة القانعة المستَبْشرَة وقَالَ لَها: إذَا جَاءَ زوجُك فاقرئى عليه السَّلام ومُريه بأنْ يثبتَ عتبةَ بَابه.

وعادَ إسمَاعيلُ منَ الصَّيد، وشمَّ رائحَةَ أبيه، وعَرفَ بزيارَته.

فسألَ زوجتَهُ: هَلْ أتاكُمْ أحدٌ للزِّيارَة؟

قَالت الزَّوجَةُ البشُوشُ الطَّيبةُ:

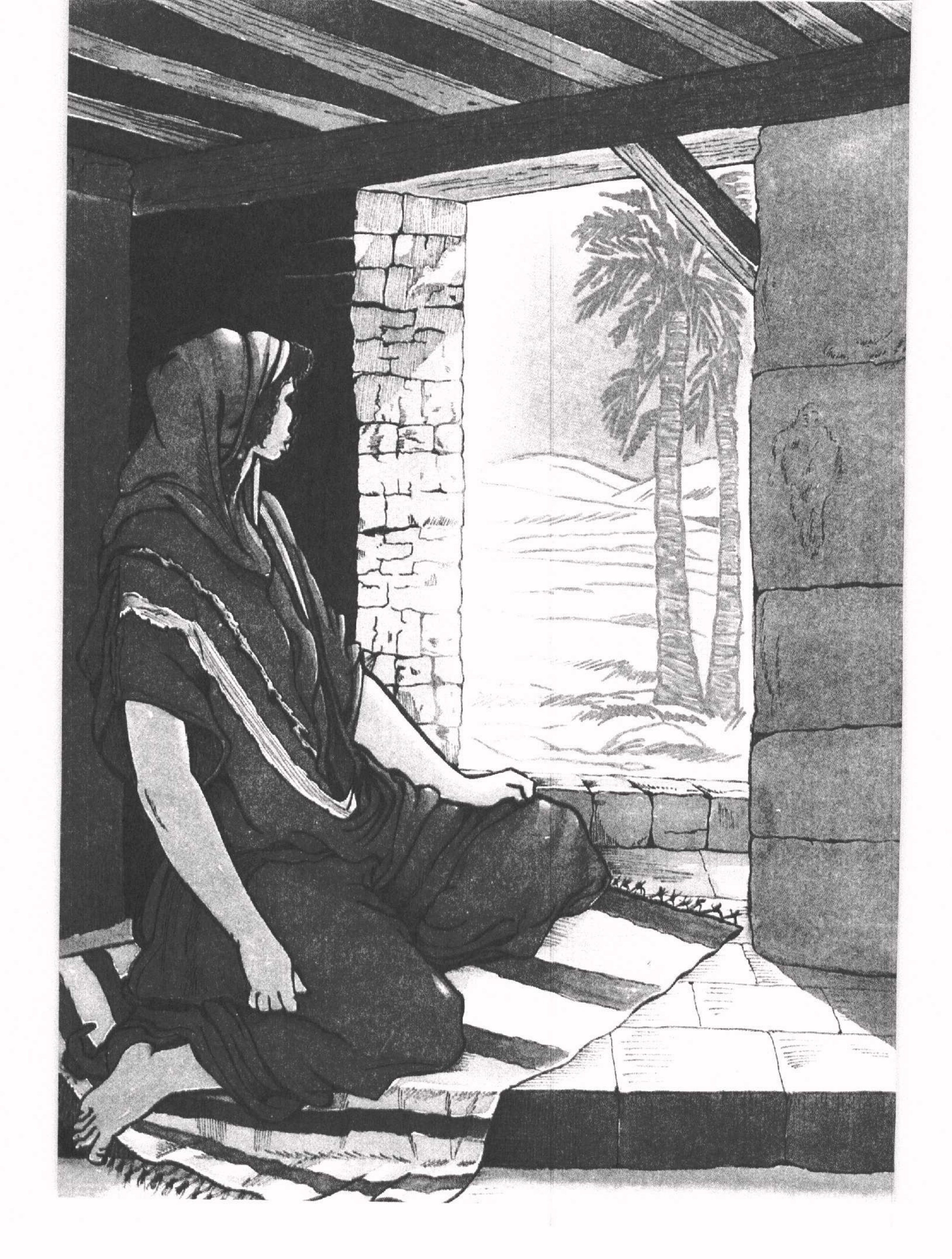
نَعمْ.. أتانَا شَيخٌ حسَنُ الهيئَة، فى وَجهه نُورٌ، ودلالاتُ صَلاح وتقْوى، وسألَنى عنْك وعَنْ معيشَتنَا.

قَالَ إسْماعيلُ: وهَلْ أوصَاك بشىء؟

قالَت الزَّوجَةُ: نعَمْ، يُقرئُكَ السَّلامَ، ويأمرُكَ بأنْ تُثبتَ عَتبةَ بَابكَ.

قَالَ إسمَاعيلُ: إنَّ هذَا أبى.. وقَد أمرنى أنْ أُحافظَ عليْك. فأنْت عتبَةُ الباب الَّتى يأمُرنى أن أثبتَها.

وهَكذَا كَانَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ، يزورُ ولدَهُ إسمَاعيلَ دائمًا، ويتَابعُ أحوالَه وأحوالَ أمِّه قبلَ وفاتهَا، ثمَّ يتابعُ أحوالَ ابنه مَعَ زوجته بَعدَ ذلك، ليطمئنَّ قلبُ الأبِ الشَّيخ علَى ابنه الكَبير.



إبراهيمُ وإسماعيلُ

يرفعانِ قواعدَ بيتِ اللهِ الحرام

تَقعُ الكَعبةُ فِى وَسطِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، كمَا أثبتَ العلمُ ذلكَ وأكَّدهُ العُلماءُ.

ولهَذه الكَعبة مَكانَتُهَا المقدَّسةُ؛ لأنَّها البَيْتُ الأولُ الَّذى بُنىَ علَى الأرضِ لعبادَة الله، وَفى ذلكَ يقُولُ اللهُ تعَالَى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (٩٦)﴾ [آل عمران].

وبمرُور الزَّمان، وتَعاقُب الأيام، وبسبَب الفَيضَان الَّذى غَمرَ الأرضَ، والسُّيول الَّتى اجْتَاحَتْ كثيرًا منَ الأبنية، وعَوامل التَعرية والأمطار تأثرت الكَعْبةُ، وَتهدَّمَ بناؤهَا، ولكنْ بقيَتْ قواعدُهَا ثابتةً، فأوْحَى اللهُ إلَى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، بأنْ يرفعَ قَواعدَ الكَعْبة المشرَّفة، وأنْ يعيد بناءَهَا مَع ولَده إسمَاعيل.

وبدأَ إبرَاهيمُ تنَفيذَ أمْرِ الله، وسَاعدَ إسمَاعيلُ أباهُ فى البنَاء، ورَفْع القَواعد، فكَانَ إبرَاهيمُ يبْنى، وإسمَاعيلُ يأتى بالحجَارة منَ الجبَلِ، وَيُناولُهَا أَباهُ، حَتَّى إذَا ارْتفعَ البناءُ. وتمَّت الكَعبَةُ، بَقىَ مكان الحَجَر الأسود، فجَاء إسمَاعيلُ بحجَرٍ لَم يُعجبْ والدهُ، فَذهبَ ليَأتىَ بحجر آخرَ، ولمَّا عَادَ وَجدَ جبريلَ عليه السَّلامُ، قدَ سبقَهُ وأحْضرَ حَجرًا منَ السَّماء هُوَ الحجرُ الأسْودُ.

ولَمَّا أتمَّا البناءَ، دَعوَا اللهَ أنْ يُريَهُمَا المنَاسكَ الَّتى يتعبَّدان بِهَا فى الحجِّ، ويعلمَانها للنَّاسِ كَافَّةً.

فَأرسلَ اللهُ مَلَكَ الوَحْى جبريلَ عَليه السَّلامُ، فقَامَ بأدَاء مناسك الحجِّ، وإبراهيمُ وإسمَاعيلُ عليهمَا السَّلَامُ ورَاءَهُ، يؤديَان المنَاسكَ كَمَا يُؤدِّيهَا، حتَّى تعلَّماهَا، وعلَّماهَا لحُجَّاجِ بَيت الله الحَرامِ، ومَازالتْ قَائمةً حَتَّى اليومِ كما شرَعَهَا اللهُ تعَالَى، إذْ يَقُولُ عزَّ شَأْنُهُ:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران].

كَما قَال جَلَّ وَعَلا:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة].

إِسمَاعِيلُ عَليهِ السَّلامُ

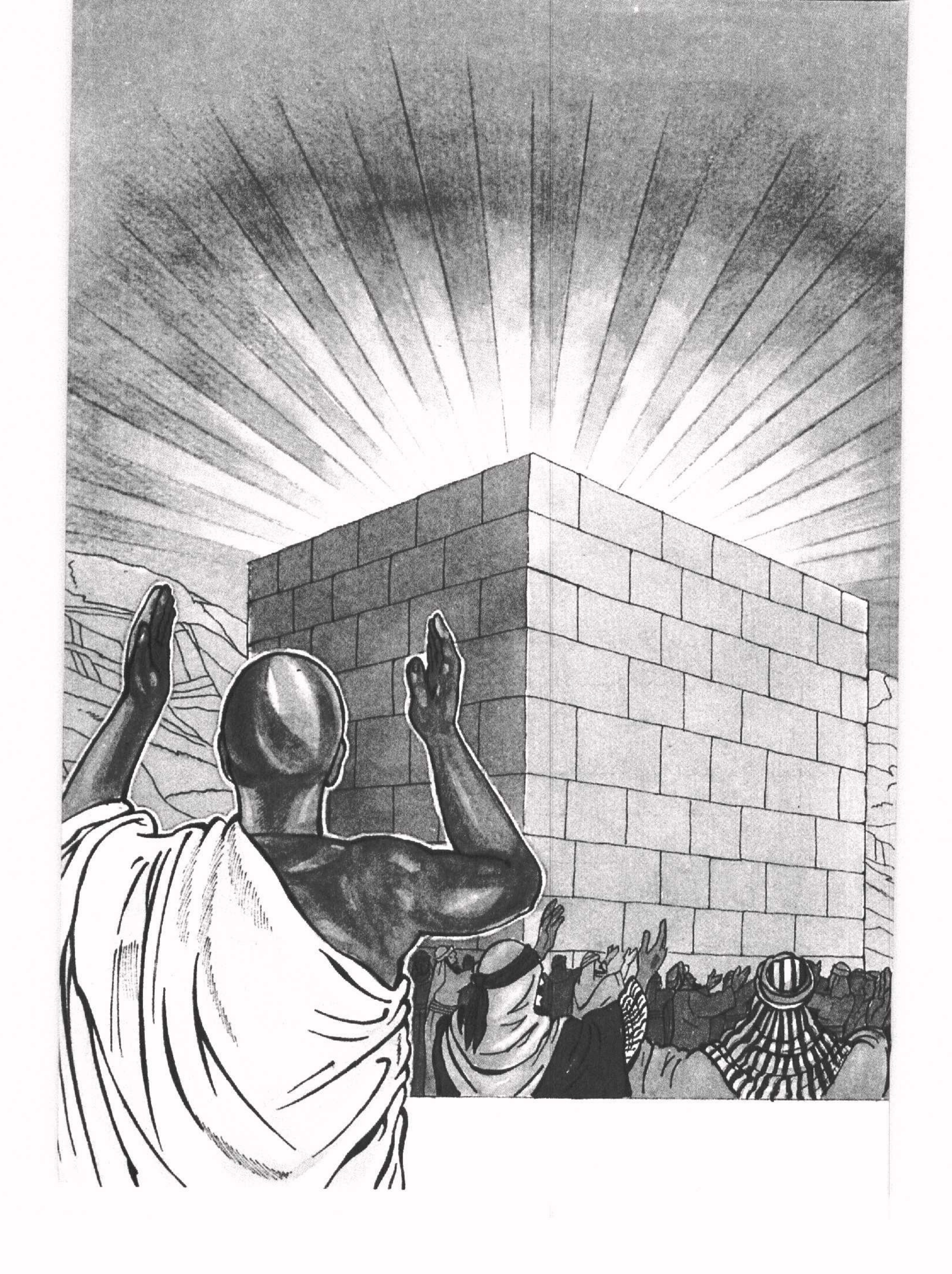
رَسُولاً ونَبياً

وَأرسَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِسـمَاعِيلَ عليْـه السَّلامُ رُسُولاً ونبيًّـا فِى الجزيرَةِ العَربيَّةِ، للعرَبِ كَافَّةً، ولقبِـيلَةِ جُرهُم خَاصَّةً، ولكُلِّ حُجَّاجِ بيَتِ اللهِ الحَرَامِ وزائريه، فقـدْ أقامَ القَواعِـدَ مِنَ البَيْتِ هُوَ وأبُوهُ عليْه السَّـلامُ، وأَتمَّا بناءَهُ، وأذَّنَ إبرَاهيمَ فِى النَّاسِ بالحَجِّ، وأسْمَعَ اللهُ نداءَهُ للبشريَّـةِ كَافَّةً، فبدأَ النَّاسُ يَحُجُّـونَ إِلَى بَيتِ اللهِ الحرَامِ، وإسماعـيلُ يُريهمْ مَناسِكَهُمْ ويعلِّمُهُمْ شَـعائرَ حَجِّهِمْ، ويدعُوهُمْ إِلَى عبادةِ اللهِ الوَاحدِ القَهَّارِ، ويَأمُرُهُم بمَا أمرَ اللهُ بهِ من صَلاةٍ وزَكاةٍ، ومحَاسنِ أخْلاَقٍ ومَكارمِ فعَالٍ.

لذلكَ أثنَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَى نَبيهِ وَرسُولِهِ إِسْمَـاعيلَ عليْه السَّلامُ فقالَ جَلَّ شَأْنُهُ:

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًا ﴾ [مريم].





وَفاةُ إسماعيلَ وذِكرُ أولادِه

عَاشَ إسماعِيلُ عليْه السَّلامُ مائةً وسبعًا وثلاثين سنةً، ودُفِنَ بمكَّةَ بعد أنْ خلَّفَ اثْنَىْ عَشرَ ولدًا هُمْ رؤساءُ قبائلِ العرَبِ، ولذلكَ يسمَّى إسماعيلُ عليْه السَّلامُ بأبى العرَب.

وأولادُهُ الَّذين ذكرَ أسماءَهُمُ المؤرِّخونَ، هُمْ: نبايوتُ بكرُ إسماعيلَ، وقيدارُ، وأديئيلُ، ومبسامُ، ومِشماعُ، ودُومَةُ، ومسَّا، وحدارُ، ويطورُ، ونافيسَ، وقَدمةُ.

وانتَشرَت القبائلُ العربيَّةُ الَّتى يرأسُهُا أبناءُ إسماعيلَ، وعَمَّروا الجزيرةَ العربيةَ كُلَّها، فكانَ إسماعيلُ عليه السَّلامُ بحقٍّ أبا العرَب.

***

وهكذا نَرى أنَّ الإذعانَ لأوامرِ الله سببٌ لنجاحِ الإنسانِ وسعادته، وأنَّ اللهَ يعلِى شأنَهُ، ويرفعُ قدرهُ، ويُهيِّئه لمكارمِ العادَات.

إنَّ إسماعِيلَ عليه السَّلامُ، نموذجٌ للتَّضحيَةِ وقوةِ الإيمانِ، والصَّبْر علَى تنفيذِ أوامرِ الله سُبحانَهُ وتعالَى، وطَاعَتِه، والانقيادِ الكاملِ لأوامرِ الوَالدِ، مادامتْ فِى حُدودِ الشَّرْعِ والإيمان.

إنَّ إسماعيلَ أبوُ العربِ حقًّا، وهُوَ سببٌ للصِّلةِ بينَ المصرِيِّينَ والعَربِ والمسْلمينَ، فأبُوه أبوُ الأنبياءِ، وهُوَ أبو العربِ، وأمُّه هاجرُ المصريَّةُ.

إنَّ قصةَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ يُضربُ بهَا المثلُ فى تحمُّلِ مشاقِّ الحياةِ، فِى سبيلِ الهدفِ الأَسْمَى الجليلِ، والدَّعْوة إلَى الله عزَّ وجَلَّ بصدرٍ رحبٍ وصبرٍ جميلٍ، والامتثالِ الكاملِ لأوامرِ الله، ولوْ كانتْ ضدَّ رغبة الإنسانِ وإرادَته، وكذلكَ الحرصُ علَى خدمةِ بيُوتِ الله فى الأرضِ، وهىَ المساجِدُ، ودعوةُ النَّاسِ إلَى إقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة، ليكونُوا منَ المفْلحينَ.